الفصل الثانى

طبيعة الدعــوة الأسلامية

● ظاهرة تفرد بها النص القرآنى :

تحدثنا فى الفصل السابق عن الدعوة باعتبارها وسيلة نقل المبادىء والأفكار ، من صورتها النظرية فى الكتب أو فى صدور أصحابها الى الواقع العملى فى الحياة ، حيث يستجيب لها الأفراد ، ويؤمنون بها ويصــوغون سلوكهم على مقتضاها ، ويقيمون حضارة تصطبغ بصبغتها · كما تحـــدثنا عن عناصر الدعــوة بهــذا الاعتبـــار ·

ونخصص هــذا الفصل ـ ان شاء الله ـ لدراســة طبيعــة الدعــوة الاســلامية ·

وأول مــا نحب التنبيــه اليه ، هو أن لفظ الدعوة قد يطلق ويراد به المبدأ أو الدين نفسه ، بمعنى مجموع أفكاره وأحكامه · فعندما نقول مثلا : الاسلام دعوة عالمية ، فانما نعنى بكلمة الدعوة : الدين نفسه ، وأنه هداية السماء للناس كافة ، ونحن فى هــذا الفصل نســتعمل لفظ ـ الدعوة ـ بهــذا المعنى ، لا بالمعنى الســابق ، ونعنى بها الدين الاسلامى فى عقائده وعباداته وتشريعاته وأخلاقه وسائر جوانبه ·

وبطبيعة الحال فليس هــدف دراستنا للدعوة ـ بهـــذا الاعتبـار ـ بيان هــذه العقائد والمبادىء ، وذكر تفصيلاتها وأدلتها ، فذلك جانب له مجاله ، ولا يتصل بموضوع الرسالة ·

وانمــا ندرس الدعوة ـ بمعنى الدين ـ من زاوية أخرى ، وثيقــة الصلة بموضوعنا ، ولا يمكن التغاضى عنها وتجاهلها ·

وسوف نرى أن طبيعة الدعوة الاسلامية ـ كدين ـ هى التى حـــددت وسيلة تبليغها والدعوة اليها ، وجعلتها على ما هى عليــه لتلائم طبيعتها وخصائصها ·

فما طبيعة الدعوة الاسلامية اذن ؟

ان الدارس للدعوة الاسلامية ، يجد نفسه أمام ظاهرة جليلة حقا ، ظاهرة متفردة فى طبيعتها وخصائصها ، لم تسبق بمثلها ، ولن يلحق بها ما يشبهها أو يقرب منها ، ذلك أن كتابها ـ القرآن الكريم ـ قد جمع فى نصه الربانى بين جوانب ثلاثة من المستحيل أن تجتمع لغيره . فهو أولا الدين والرسالة ، وهو ثانيا أسلوب العرض والتبليغ للرسالة ، وهو ثالثا وفى نفس الوقت دليل صدق الرسالة .

أما أنه الدين فلأنه قد سجل المبادىء والأفكار والأحكام التى يريد ابلاغها للناس ، وهو المصدر الأول للشريعة الاسلامية ، باجماع المسلمين ، وما عداه من المصادر كالسنة والقياس والاجماع انما يدور فى فلكه ويهتدى بنوره بيانا وشرحا أو استنباطا وتطبيقا .

وأما انه أسلوب العرض والتبليغ فلأنه قد صيغ فى صورة هى المثل الأعلى فى قوة التأثير فى النفوس ، وحمل المخاطبين على الاقتناع والايمان ويكفى أن يبلغه الرسول ﷺ للناس ويقرأه عليهم دون زيادة أو نقص ، ليتحقق ما يريد ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا .

وأما أنه دليل صدق الرسالة ، فلأنه هو نفسه معجزة النبى ﷺ التى أمر أن يتحدى بها الناس ، اثباتا لنبوته لما جرت عليه سنة الله فى الرسل أن يمنح كل نبى من أنبيائه ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ أمرا خارقا للعادة يعجز قومه عن الاتيان بمثله ، لأنه فوق طاقة البشر ، ليكون دليلا على صدقه . فكان القرآن فى نصه هو معجزة نبينا ودليل صدقه .

اذن فنحن أمام دعوة فريدة لا تنفصل فيها الأفكار عن أسلوب التبليغ . ولا تنتظر هناك ـ كغيرها من المبادىء ـ فى صورتها النظرية حتى يتهيأ لها من يستطيع أن ينقلها الى الواقع ويبث فيها الحياة بقدرته على الاقناع ونبوغه فى وسائل التبليغ .

لا .. انها دعوة الهية فى مصدرها ، الهية فى صيغة تبليغها تستمد من ذاتها دليل صدقها ، وليس فى هذا انتقاص لمقام سيدنا رسول الله ﷺ . فيكفيه اصطفاء الله له دون غيره ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، ويكفيه صلوات الله وسلامه عليه نهوضه بعبء تبليغها وصبره على الأذى فى سبيلها ، وجهاده المرير لأعدائها . جزاه الله عنا خير ما يجزى نبيا عن امته .

وانه لشرف ـ أى شرف ـ للغتنا العربية أن تكون وعاء لهـذا النحو الربانى المعجز ، الذى يجمع بين هـذه الجوانب كلها • وأحسب أن لغة أخرى غيرها لم تظفر بهـذا الشرف ، منذ أن عرف الناس اللغات وحتى يرث الله الأرض ومن عليها •

فلنتحدث بشىء من التفصيل عن كل من هـذه الجوانب الثلاثة للقرآن الكريم •

● أولا ـ القرآن باعتباره أسلوب عرض للدعوة وتأثيره فى النفوس :

اذا تحدثنا عن القرآن ، باعتباره أسلوب عـرض للدعوة ، وباعتباره المثل الأعلى فى قوة التأثير والاقناع ، فسنجد الشواهد القاطعة على كل ما قلناه • فقد واجه العرب الدعوة بكل ألوان المقاومة ، ولم يدعوا وسيلة لمقـاومتها الا اتبعوها ، باللطف والمساومة ، أو بالعنف والبطش •

ولم يكن موقفهم هـذا من القرآن لـا يعلنه من أفكار وعقائد فقط بل كان الأساس فيه هو هلعهم الشديد مما لمسوه من أثره فى النفوس وقدرته على اقناع الناس به ، وضمهم الى صفه •

فقد كان فى العرب حنفـاء من فحول الخطبـاء والشـعراء ، كقس ابن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت ، وفيهم الموحدون على دين ابراهيم كورقة ابن نوفل ، وفيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى • وكان كل واحد من هؤلاء ـ طبعا ـ يدعو الى دينه • ويرغب فيه ، فلم يعـاد الجمهور أحـدا من هؤلاء أو يحتقره ، بل كانت لهم مكانتهم اللائقة بهم كأمثالهم من المشركين ولم يكن لليهودية ولا للنصرانية فى مكة أدنى صولة ، ولا خافها رؤسـاء قريش على زعامتهم الدينية ولا الدنيوية •

فلما جاءهم محمد ﷺ ، تغير موقفهم هـذا لأنهم أحسوا فى قرآنه قوة غلابة ، وتيارا جارفا يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل صوته • فكان طريقهم الوحيد عندهم لمقاومته ، هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هـذا القرآن والناس مهما كلفهم ذلك من تضحية • فتواصوا بعدم سماعه وكانوا يلاقون القبائل الواردة الى مكة فى المواسم يحـذرونها منـه • ويحـكى القرآن الكريم عنهم ذلك فى قوله :

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (١) • وما ذلك الا لأنهم أدركوا تأثير هذا القرآن فيهم وفى اتباعهم ، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشية وضحاها بالآيات يستمعون اليها ، فتنقاد اليها النفوس ، وتهوى اليها الأفئدة •

« وهذا التأثير هو الذى كان يجذب رؤساء أولئك المعاندين ليلا لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ فى بيته ، على ما كان من نهيهم عنه ، وتواصيهم وتقاسمهم ألا يسمعوا له ، ثم كانوا مع ذلك يتسللون فرادى مستخفين ، ويتلاقون متلاومين »(٢) •

وتروى كتب السيرة أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق كان كل واحد منهم يأتى من ناحية ليستمع قراءته ﷺ من حيث لا يراه الآخرون ، فاذا تلاقوا بعد الانصراف تلاوموا وتواعدوا الا يعودوا ، لئلا يعلم بهم غيرهم فيقتدوا بهم •

ويروى البخارى فى باب جوار أبى بكر فى عهد النبى ﷺ وعقده ، قال : « قال أبو صالح : حدثنى عبد الله عن يونس عن الزهرى ، قال : أخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : لم أعقل أبوى قط الا وهما يدينان الدين(٣) ولم يمر علينا يوم الا ويأتينا رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشيا ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة ، حتى بلغ برك الغماد(٤) ، لقيه ابن الدغنة ، وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى ، فأنا أريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى • قال ابن الدغنة : ان مثلك لايخرج ولايخرج (٥)• فانك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلادك • فارتحل ابن الدغنة فرجع مع أبى بكر ، فطاف فى أشراف كفار قريش ، فقال لهم : ان أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج • أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فأنفذت

---

(١) فصلت : ٢٦ (٢) الوحى المحمدى ص ١٢٦

(٣) يدينان الدين : أى يطيعان دين الاسلام •

(٤) برك الغماد : بفتح الباء وسكون الراء وفتح الغين : موضع باليمن •• أو وراء مكة بخمس ليال • القاموس ص ٣٠٤ جـ ٣ •

(٥) لايخرج ولايخرج : الأولى بفتح الياء وضم الراء ، والثانية بضم الياء وفتح الراء •

قريش جوار ابن الدغنة ، وأمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل وليقـــرأ ما شـــاء ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به ، فانا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا • قال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فطفق أبو بكر يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة فى غير داره • ثم بدا لأبى بكـر فابتنى مسجدا بفناء داره ، وبرز فكان يصـــلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف(١) عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظـرون اليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القـرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا الى ابن الدغنة فقـدم عليهم ، فقالوا له : انا كنا قد أجرنا أبا بكر ، على أن يعبد ربه فى داره وانه جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة ، وقـد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فأته ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبـد ربه فى داره فعل ، وان أبى الا أن يعلن ذلك فسله أن يرد اليك ذمتك ، فانا كرهنا أن نخفرك(٢) • ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان • قالت عائشة . فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذى عقـدت لك عليـه ، فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترد الى ذمتى ، فانى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقـــدت له • قال أبو بكر : انى أرد اليك جوارك وأرضى بجـــوار الله »(٣) •

اذن فتأثير القرآن ، وسلطانه على النفـوس ، هو ما كان يخشـاه المشركون ، فما كانت حملاتهم موجهة الى القرآن فى الصدور ولا فى داخل البيوت ، فقد قبلوا منه أن يعبد ربه فى بيته كيف شاء ، انما كانت مصوبة الى هـدف واحد ومقاومة لخطر واحد ، هو اعلان هـذا القرآن ونشره بين العـــرب(٤) •

ومما يؤيد ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول حين يعـرض نفسه على الناس فى الموقف • « ألا رجل يحملنى الى قومه ؟ فان قريشـا منعونى أن أبلغ كلام ربى » • فلم يمنعوه من تلاوته بينه وبين نفسه كمـا يشاء ، وانما منعوه أن يبلغه للناس ، لثقتهم من تأثيره فيهم ، واستجابتهم لـــــه •

---

(١) ينقذف عليه نساء المشركين : أى يجتمعن عليه •

(٢) نخفرك : ننقض عهدك •

(٣) صحيح البخارى جـ٢ ص ٣٩ •

(٤) انظر النبأ العظيم • دكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٨ •

ولا حاجة بنا الى الحديث عن أثره فى قلوب المؤمنين فقد عبر عنه القرآن أروع تعبير :

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » (١) ·

أما سر هذا التأثير فلاشك أنه كامن فى بلاغته المعجزة ، التى تجلت فى أسلوب عرضه للدعوة ، وكانت وسيلته فى الوصول الى القلوب ، والأداة التى شق بها طريقه الى نفوس المؤمنين والكافرين على السواء ، فأخبت له الأولون وفزع منه الآخرون ·

★★★

● ثانيا ـ القرآن باعتباره معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة :

ادعاء النبوة وما يلزمه من الاتصال بالملأ الأعلى وتلقى خبر السماء ، دعوى عريضة لا تقبلها العقول دون دليل حاسم يثبتها · ولهذا جرت سنة الله تعالى أن يظهر على يدى كل نبى أمرا معجزا ، يكون دليلا على صدق دعواه ، حتى يتبين الحق من الباطل ، وتنقطع به حجة المعارضين ·

ولكى تكون المعجزة قاطعة لكل حجة مرتفعة فوق كل مكابرة كانت دائما من جنس ما يحسنه قوم النبى وينبغون فيه ، فكانت معجزة موسى عليه السلام وهى قلب العصا حية ، واخراج يده من جيبه بيضاء للناظرين ، من جنس ما نبغوا فيه وهو السحر · كما كانت معجزة عيسى عليه السلام هى احياء الموتى ، لشهرتهم فى الطب والعلاج ·

وعلى هذه القاعدة جاءت معجزة سيدنا رسول الله ﷺ قرآنا يتلى لأن البيان والتفاخر به كان كل بضاعتهم ومناط تطاولهم ·

غير أن النظرة الدقيقة تعطى معجزة النبى ﷺ أبعادا أخرى تتناسب مع طبيعة رسالته الخاتمة ·

ذلك أن معجزات الأنبياء السابقين كانت مادية ملموسة ينتهى أثرها بمجرد حدوثها ، ولا تلزم الا من اطلع عليها أو صدق ناقلها · وذلك شىء يتناسب مع طبيعة هذه الرسالات · فهى رسالات مرحلية ، لا يلبث القدر أن يصطفى نبيا جديدا ، يجدد شرع الله ويذكر به ، أو يضيف اليه ويوسع فى آفاقه ·

---

(١) الزمر : ٢٣ ·

اما رسالة نبينا محمد ﷺ فهى خاتمة الرسالات وهى الحلقة الأخيرة فى سلسلة النبوات الطاهرة · ومن هنا كان لابد أن تكون معجزتها شيئا باقيا ثابتا أبد الدهر ، ليكون حجة الله القائمة على خلقه ، ولتظل الدعوة محروسة بمعجزتها الى قيام الساعة · فكانت كتابا يتلى ويتعهد الله بحفظه ، ويصونه أن يحرف أو يبدل ·

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١) ·

والعجيب أن العرب ظلوا يطالبون رسول الله ﷺ بمعجزات مادية من جنس معجزات الأنبياء السابقين ·

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا · أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا · أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا · أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه »(٢) ·

ولكن الله سبحانه وتعالى بين لهم أنهم لو كانوا صادقين حقا فى أنهم سيستجيبون للمعجزات فان القرآن اكبرها جميعا ، واعلى شانا مما يطلبون :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين · أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »(٣) ·

ولقد تحداهم القرآن الكريم وكرر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى ، متهكما بهم ، متنزلا معهم الى الأخف فالأخف · فدعاهم اول مرة أن يأتوا بمثله :

---

(١) الحجر : ٩ ·   (٢) الاسراء : ٩٠ ـ ٩٣

(٣) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١

« أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون · فلياتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين »(١) ·

فلما عجزوا دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صـادقين · فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وأن لا اله الا هو ، فهل أنتم مسلمون »(٢) ·

فلما عجزوا فى هذه المرة أيضا طاولهم مرة أخرى وطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله :

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبـدنا فأتوا بسـورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين »(٣) ·

ثم أخبرهم أنهم لن يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، زيادة فى استثارتهم وتحريضهم :

« فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النـار التى وقودها النـاس والحجارة ، أعـدت للكافرين »(٤) ·

وزاد ذلك تأكيدا :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القـرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٥) ·

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « فانظر كيف تنزل معهم فى هـذه المرتبة من طلب المماثل الى طلب شيء مما يماثله · وكأنه يقول : لا أكلفكم

---

(١) الطور : ٣٣ ، ٣٤
(٢) هود : ١٣ ، ١٤
(٣) البقرة : ٢٣
(٤) البقرة : ٢٤
(٥) الاسراء : ٨٨

بالمماثلة العامة بل حسبكم أن تأتوا بشيء من جنس المماثلة ومطلقها وبما يكون مثلا على وجه التقريب لا التحديد · وهذا أقصى ما يمكن من التنزل فانظر أى الهاب وأى استفزاز هذا ·· لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد فى قوله : « ولن تفعلوا » ثم هددهم بالنار ثم سواهم بالأحجار فلعمرى لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا على منافسته وهم الأعداء الألداء ، وأباة الضيم الأعزاء ، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم ، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها الى معارضته ولا سلما يصعدون به الى مزاحمته ، بل وجدوا أنفسهم أمام طود شامخ ، فما استطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا » (١) ·

فالقرآن اذن بشهادة التاريخ الناطقة فقد أعجز العرب عجزا لم يستطيعوا له دفعا ، ولم يجدوا عنه مهربا · ومضى الأمر على ذلك ، حتى انتهى عصر القرآن وتتابعت بعده العصور · وكلما جاء عصر كانت معجزة القرآن أسطع بريقا ، وأشد توهجا ، وكان أهله أشد عجزا ، وأقل طمعا فى الوصول اليها أو التجرؤ على مطاولتها · وما زال القرآن حتى الآن غضا طريا يحمل راية الاعجاز ويتحدى أمم العالم فى يقين وثقة ، قائلا فى صرامة الحق وقوته وسلطان الاعجاز وصولته :

« **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » (٢) ·

ولقد بذل سادتنا العلماء جهودا مشكورة فى هذه القضية ، بحثا عن طبيعة هذا الاعجاز ووجوهه ، بين مقل ومكثر · وليس غرضنا دراسة قضية اعجاز القرآن هنا دراسة مستوعبة تحيط بكل ما قيل حولها وتناقشه لتأخذ أو تدع أو تضيف ولكنا نتعرض لها من زاوية خاصة ، تلك أنها سمة من سمات القرآن الكريم باعتباره كتاب الدعوة الاسلامية ، الذى استكمل كل عناصرها ووفى بجميع احتياجاتها ، فجمع بين الأفكار ، وصياغتها ، ودليل صدقها · لذلك سنكتفى باستعراض بعض وجوه الاعجاز معقبين عليها بما يتصل بموضوع الرسالة فقط ·

★ ★ ★

---

(١) النبأ العظيم · دكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٤ ـ ٨٥

(٢) الاسراء : ٨٨

وجوه الاعجـاز

● **الاخبـــار بالغيب :**

لقد اشـتمل القرآن على كثير من أنباء الغيب ، سـواء فى هـذا ما يتصل بالمـاضى أم بالحاضر أم بالمستقبل · وقد بلغ القرآن فى ذلك حـدا مذهلا · وصل الى درجة التنبؤ بحوادث جزئية محددة ، منها على سبيل المثال قوله تعالى فى شأن الوليد بن المغيرة :

« سنسمه على الخرطوم » (١) ·

كان ذلك بمكة حيث لا تجد الدعوة من يدفع عنها الأذى ، ولا يدور فى خيال انسان أنه سيأتى اليوم الذى يلتقى فيه رجالها بأعدائهم لقـاء حرب وطعان ولكن الأيام تمضى ويأتى يوم بدر ، ويخطم الوليد بن المغيرة بضربة سيف على خرطومه ، تكون له سمة ليعير بها ما عاش (٢) ·

وواضح أن وجه الاعجاز فى الاخبـار بالغيب ، هو أن ذلك ليس فى طاقة الانسان · لأن غاية ما يستطيعه العقل البشرى أن ينقل عن غيره أو يقيس غائبا على شاهد · وكل ما كان بعيدا عن هـــذه الدائرة فهو مما لا يمكن لعقل الانسان أن يناله بحال · والقـرآن زاخر بالاخبار بالغيب بكل ألوانه وما يتصل منه بالحاضر أو بالمستقبل لم يتخلف منه شىء ، بل وقع كما أخبر به وإذن فهو صادر عن جهة أعلى شـأنا من الانسـان · وهى الله سبحانه وتعالى ·

ولاشك أن الاخبار بالغيب مما يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله · ولكننا مع من يرون أن ذلك ليس وجه الاعجـاز الذى وقع به التحـــدى ، لأن التحدى انما كان بسـورة منه ، وليس فى كل سـورة انباء بالغيب ، فيكون بعضه معجزا وبعضه غير معجز · ومع ذلك لا يمكن أن نقلل من قيمة هـذا الوجه ، لأن نبؤات القـرآن الكريم لم تنته بعـد · وكلما تحقق بعضها كان ذلك بمثابة دليل متجدد يذكر بقيمة القرآن وصدقه · والقـرآن خاتم الرسالات فلابد أن يكون فيه الاعجاز المتجدد على مر الزمان ·

---

(١) القلم : ١٦

(٢) انظر تفسير الكشاف ص ١٤٣ والنبأ العظيم ص ٥١

● **الاعجاز العلمى :**

عهدنا بالقمم الانسانية فى ذروة امتيازها من المفكرين والعلماء أن يبرز كل منهم فى جانب من جوانب المعرفة والعلم · ويكون تفوقه هذا جسرا يصل بين ما سبق به من المعرفة فى فنه ، وبين ما سيضيفه لاحقه اليه · كما أن أفكاره لن تكون الكلمة الأخيرة فيما يتصدى له من مسائل وانا نرى أن أعظم الفلاسفة قدرا لا يكاد يمضى على وفاته سنوات حتى تكون أفكاره قد تصدع بنيانها لكثرة ما وجه اليه من نقد ومآخذ · ولكننا نرى القرآن على العكس من ذلك كله ، فهو يشتمل على ما لا يحصى من العلوم والمعارف ، فى العقائد والتهذيب والأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع وكل ما يحتاج الانسان اليه فى دينه ودنياه · وهو فى كل ذلك ليس تطويرا لما كان موجودا فى البيئة التى نشأ فيها ، وليس كل ما فيه حلولا لمشاكل كانت تبحث عن حل لها ، بالاضافة الى أن معارفه لا يرقى اليها النقص ولا الفساد ، بل هى صالحة لكل زمان ومكان · بل الفساد انما يضرب أطنابه عندما يبعد ركب الحياة عن هديها ، ويتفلت منها ، لأنها كالنواميس الطبيعية التى لا تتخلف ، فاذا أضفنا الى كل ذلك أن من جاء بها رجل أمى نشأ فى بيئة بدائية لا رصيد لها فى الفكر العلمى المترابط الذى يفرز مثل هذه المعارف والعلوم ، لكان ذلك دون ريب اعجازا لا يستطيعه بشر ·

وهذا الوجه فى الاعجاز ــ على قيمته فى الاقناع والدعوة ــ ليس هو وجه الاعجاز المتحدى به لما سبق أن أوضحناه ·

● **العلوم الكونيــة :**

القرآن الكريم كتاب هداية وتزكية للنفس الانسانية ، فى المقام الأول ، ومع ذلك فقد اشتمل على كثير من العلوم الكونية · وقد راق لبعض الباحثين أن يتوسعوا فى هذا الجانب وأن يتلمسوا فى آيات الله البينات ما يمكن تفسيره على ضوء ما توصل اليه العلم التجريبى من نظريات وفروض · ومع ما فى هذا المنهج من خطر ومزالق ، نظرا لأن معظم النظريات العلمية لا يكتب لها الدوام والسلامة من النقص ، مما يؤدى الى البلبلة والشكوك وعندما نخضع تفسير آياته البينات لما تثبته نظرية من النظريات العلمية ، ثم يمر الزمن فاذا النظرية نفسها لا تقف على أرض صلبة وتتعرض للنقد أو الهدم ، وهذا يستدعى الحيطة والحذر ، خصوصا وأن ذلك ليس من مقاصد القرآن الأساسية · بل يتركها لأنها

خاضعة لقانون التطور الانســـانى ، ولا يمـكن للبشر أن يحيطوا بدقائق العلوم وتفصيلاتها مرة واحدة ، وانما هى أسرار يجليها الله وقتما يشاء ، ويلهمها من يريد وفق مشيئته فى صلاح الحياة ·

« وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » (١) ·

ولكن ما تضمنه القرآن من هذه العلوم ، انما سبق فى اطار هدف جليل من أهـــدافه وهو الحث على التدبر فى آيات الله ومعـــرفة أسرارها وحكمتهـا ، وما تنطق به من دلالة عـلى قدرة خالقهـا العظيم ، ومدبرهـا الحـكيم ، ليؤدى ذلك ثمرته عمقـا فى اليقين ، واستشعارا للجـــلال ، واستسلاما للعظمة ·

« أو لم ينظـروا فى ملكوت السـموات والأرض ومـا خلق الله من شىء » (٢) ·

« وكاين من اية فى الســـموات والارض يمـرون عليها وهم عنهـــا معرضون » (٣) ·

« افلم يســيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـــا او اذان يسمعون بهـا ، فانهـــا لا تعمى الأبصـــار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٤) ·

ولا شك فى أن القرآن الكريم تضمن الكثير من العلوم الكونية ولكن أسلوبه فى عرض هذه المعارف أسلوب معجــز حقا · حيث جمع بين البيان والاجمال بصورة تتيح لكل قارىء ، وفى كل عصر أن يفهم التعبير وفق مستواه هو ، واستعداده الحضارى · وسوف نعرض الكثير من النماذج لهذا اللون فى موطنه من البحث ولكننا نكتفى هنا بأن نقول : ان هـــذا الجانب على أهميته ودلالته على الاعجاز ، ليس وجه الاعجاز الذى تحدى به القرآن العرب ·

---

(١) الحجر : ٢١ — (٢) الاعراف : ١٨٥

(٣) يوسف : ١٠٥ — (٤) الحج : ٤٦

هذا وقد زاد العلماء كثيرا من وجوه الاعجاز فوق ما تقدم مثل سياسته فى الاصلاح ووفائه بحاجات البشر (١) ، الى غيرها من الوجوه ٠

● الاعجـــاز البلاغى :

غير أن الوجه الذى نراه فى الاعجاز متسعا لكل ما ذكروه من وجـــوه هو الاعجاز البلاغى ٠ ذلك لأنه يتحقق فى كل أجـزاء القرآن وفى القـدر المتحدى به ، وهو أقصر سورة منه ، كما أنه متحقق أيضا فى آيات التشريع والانباء بالغيب والعلوم الكونية وسائر ما ذكر من وجوه ٠ فاذا كانت هذه الوجوه معجزة بذاتها ومادتها فهى أيضا معجزة فى طريقة التعبير عنها ٠

والاعجاز البلاغى للقرآن الكريم بحـر متلاطم من الأسرار والعــلوم ولا يستطيع باحث أن يجليه تجلية كاملة ، وغاية ما يحققه أن يضيف لبنة فى صرح شامخ ٠

« فلمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنـا وفى عصرنا ٠ فحفيت من دونه أقلامهم ، ولم يزيدوا الا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفى عليهم منه كان أكثر مما فطنوا له ، وأن الذى وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم ولم تف به اشاراتهم » (٢) ٠

ولا أرانى فى حاجة الى تفنيد الرأى الذى يذهب الى أن عجز العرب عن محاكاة القرآن كـان بسبب صرف الله لهم عن معــارضته ، وتوجيـه هممهم عن ذلك ٠ فقد كفانا سادتنا العلماء هذا الجهد بما يوفى بالحـاجة ويربو عليها (٣) ٠

وننتقل الآن للحديث عن الجانب الثالث من جوانب القرآن الكريم ، باعتباره وعاء للرسالة والدين ٠ مبرزين أهم الخصائص المتصلة بموضوع دراستنا ٠

★★★

---

(١) انظر مناهل العرفان ص ٢٤٧ ــ ٢٥٧ ٠

(٢) النبأ العظيم ص ١٠١ ٠

(٣) انظر مناهل العرفان ص ٢١٠ ــ ٢١٦ ٠

● **ثالثا ـ خصائص الرسالة الاسلامية :**

عالمية الدعوة وما يتطلبه ذلك من الأساليب

الاسلام دين الله للبشرية ، منذ أول يوم من أيامها · ومنذ أن كان هناك وحى · قال تعالى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » (١) ·

ويبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن الرسالات بناء واحد ، وأن لكل نبى نصيبا فى هذا البناء : « مثلى ومثل النبيين قبلى كمثل رجل بنى دارا فأحكمها وأحسنها الا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فأنا اللبنة ·· أنا خاتم النبين » رواه البخارى ·

فالرسالات السماوية واحدة لأن الحق واحد ولأن مصدرها واحد هو الله تعالى · فهى قوانين سماوية ليس لبشر فيها نصيب من اضافة أو اختراع ·

غير إنها فى تتابعها على أيدى الرسل تتكامل حسب الحاجة حتى اخذت صورتها الأخيرة فى القرآن الكريم ·

« اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (٢) ·

واذا كان الاسلام هو دين الله الكامل ، فهو دين الانسانية كلها ، أبيضها وأسودها · فبينما يحكى القرآن عن الرسالات السابقة أنها كانت لقوم كل نبى بخاصة ، نجده بالنسبة للاسلام ينص فى صراحة قاطعة أنها دين الله للناس جميعا ·

---

(١) الشورى : ١٣ · (٢) المائدة : ٣ ·

قال تعالى فى شأن الرسالات السابقة :

« لقد أرسلنا نوحا الى قومه » (١) ٠

« والى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبـدوا الله ما لـكم من اله غيره » (٢) ٠

« والى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » (٣) ٠

« ولوطا اذ قال لقومه » (٤) ٠

« والى مدين أخاهم شعيبا » (٥) ٠

وقال فى شأن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (٦) ٠

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٧) ٠

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٨) ٠

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قـد أمر فى بدء الرسالة أن ينذر عشيرته الأقربين ، فما ذاك الا لأن هذه هى البداية الطبيعية لكل شىء تبدأ نقطة ثم تتسع دوائرها وتتداح متتابعة حتى تصل الى أبعد مدى توصلها اليه قوتها المركزية :

« وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (٩) ٠

فحيثما بلغ صوتها فالسامعون منذرون مدعوون ٠

وسلوكه ﷺ قاطع فى هذا ٠ ففى أشـد أيام اليـأس حيث لا يرى بصيص من نور ، لمن ينظر للأمور بظواهرها ، يمر الرسول ﷺ ببعض اتباعه

---

(١) الأعراف : ٥٩

(٢) الأعراف : ٦٥ ٠

(٣) الأعراف : ٧٣ ٠

(٤) الأعراف : ٨٠ ٠

(٥) الأعراف : ٨٥ ٠

(٦) الأعراف : ١٥٨ ٠

(٧) الأنبياء : ١٠٧ ٠

(٨) سبأ : ٢٨ ٠

(٩) الأنعـام : ١٩ ٠

يعذبون ، يكاد معين صبرهم ينفد لشدة الأذى ، ويسأله أحدهم : يا رسول الله ٠٠ الا تدعو لنا ؟ فيجيبه عليه الصلاة والسلام : « صبرا ٠٠ والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يكون السائر من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله أو الذئب على غنمه » ٠ وعندما يلحق به سراقة ، فى طريقه صلى الله عليه وسلم للهجرة ، طمعا فى الجائزة التى رصدتها قريش لمن يأتى به حيا أو ميتا ، يقول له الرسول : « ارجع يا سراقة ولك سوارى كسرى » ٠

وما يكاد المقام يستقر به عليه الصلاة والسلام فى المدينة حتى يأخذ فى تبليغ الدعوة عالميا فيبعث بكتبه ﷺ الى رؤساء جميع الدول المحيطة بالجزيرة العربية ، والتى يمكن أن تبلغها وفوده ٠ فيكتب الى كسرى ملك الفرس والى قيصر ملك الروم ٠ والى النجاشى ملك الحبشة ، ويكتب لعظيم مصر ٠ ويصل دعاته الى هذه الدول ، ويسلم بعض هؤلاء فعلا كالنجاشى ، ويتريث بعضهم ويكرم وفوده ويرسل له الهدايا كما فعل عظيم مصر ، ويميل بعضهم للاسلام ولكنه لا يستطيع أن يمضى مراده لعوامل داخلية فيرجىء البت فى الأمر ٠ المهم أن عالمية الدعوة صفة أكيدة من صفاتها منذ أول أيامها ، سواء أتيينا ذلك من النصوص أم من سلوك الرسول ﷺ ٠

هذه العالمية فرضت على الدعوة واقعا لابد لها أن تواجهه بوسائل التبليغ المناسبة له ٠ ففى الجزيرة العربية ، حيث أخذت تتشكل نواتها الأولى ، كان عليها أن تتعامل مع الطوائف الآتية :

● **مجموعة القبائل المحيطة بمكة : وهم قريش ، وما ولدت من غيرها ،** وكانوا يسمون أنفسهم « الحمس » لتحمسهم فى الدين وهو تصلبهم (١) ٠

وتضم هذه المجموعة : قريشا ، وكنانة ، وخزاعة ، وبنى ربيعة ، وهم ربيعة وكلاب وعامر (٢) ٠

وهؤلاء كانوا يزعمون أنهم على دين ابراهيم وأنهم من سلالته وأن مجاورتهم للبيت الحرام وقيامهم بأمره يجعلهم فى منزلة لا يشاركهم فيها غيرهم ، وليس لأحد من العرب مثل حقهم ٠

---

(١) انظر أساس البلاغة للزمخشرى ص ١٩٧ طبعة الشعب ٠

(٢) شفاء الغرام جـ ٢ ص ٤١

واستتبع ذلك مجموعة من التقاليد والطقوس كانت تعبيرا عن فكرتهم هذه (١) ٠

الحنفاء : وهم مجموعة من العرب كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وينتظرون النبوة ، وكانت لهم سنة وشرائع ٠ ومنهم قس بن ساعدة الأيادى ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وامية بن أبى الصلت ، وخالد بن سنان ٠

مجموعة أخرى ممن رفضوا الأصنام : كفكرة صحيحة للالوهية فراحوا يلتمسون لأنفسهم دينا ، وتفرقوا فى الأمصار يلتمسون الحنيفية : دين ابراهيم ٠ ومن هؤلاء ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحويرث ، وعمر بن عبسة السلمى (٢) ٠

أهل الكتاب : من اليهود بيثرب وما جاورها ٠ وهؤلاء كانوا يجدون صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وكانوا اشد الناس عنادا واعصاهم انقيادا ٠ وبجانبهم النصارى ، وكانت قاعدتهم نجران باليمن ، وحديث وفدهم الذى قدم على النبى ﷺ ليجادله فى المسيح مشهور ٠

وقد دعاهم الرسول ﷺ الى المباهلة :

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (٣) ٠

وبجانب كل هؤلاء : مجموعات من القبائل الأعراب متفرقون فى أنحاء الجزيرة يتناحرون على مواطن الكلأ ، ويعيشون على الاغارة والسلب ، وهم كما وصفهم القرآن أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ٠

فاذا تركنا الجزيرة العربية ، فاننا نجدها محاطة بالديانات والفلسفات المتعددة :

---

(١) انظر بشائر النبوة الخاتمة ص ٨٣ ـ ٨٤ دكتور رؤوف شلبى ٠

(٢) المصدر السابق ص ٥٤ ـ ٦٩ ٠

(٣) آل عمران : ٦١ ٠

ففى الشرق : حيث الديانات البوذية المنحرفة التى تقوم على تقسيم البشر الى طوائف ، وتدعو الى السلوك السلبى وقتل الجسد ورغباته وصولا الى السمو الروحى والاتحاد من الاله ·

وفى فارس : المجوس ، حيث عبادة النار والكواكب واستعباد الملوك للشعوب ·

وفى الشمال : حيث الروم وفلسفتهم ومنطقهم وثقافتهم وحضارتهم ومسيحيتهم المحرفة ·

وفى مصر : حيث أخلاط من المسيحية والديانات المصرية القديمة ·

وكان لابد للدعوة أن تواجه هذا الواقع العريض كله ، مادامت موجهة الى العالم كله ، وأن تتعامل مع هذه النماذج الانسانية كلها ، والديانات والفلسفات كلها ·

كان عليها أن تتجه الى النفس الانسانية لتوقظ فيها معنى الكرامة التى تأبى لبشر أن يسجد لحجر أو لبشر مثله ، وتذكرها بالمساواة الانسانية التى يوجبها انتسابها الى أب واحد ، وتتجه بها بعد ذلك الى خالق واحد وتحملها مسئولية السلوك وتعمق فيها الايمان بالبعث والجزاء ·

وكان عليها ثانيا : أن تجادل أهل الكتاب وتفند حججهم ، وتفضح جرائم رجال دينهم الذين حرفوا الكتب ، وبدلوا الأسفار ، لتوافق هواهم واشتروا بايات الله ثمنا قليلا · وتدعوهم الى دين الله الواحد منذ أن خلق الله الانسان ·

وكان عليها أن تواجه المعتقدات الفاسدة في عبادة الكواكب أو غيرها من ظواهر الطبيعة ، وتبين بالحجة فساد كل ذلك ·

وعليها أن تعيد التوازن بين الروح والجسد الذى انحرفت به البوذية وغيرها من الديانات السلبية ، وتبنى الانسان المتكامل بروحه وجسده ليعمر الحياة فى نفس الوقت الذى يزكى فيه النفس ويدعم القيم والفضائل ·

وكان عليها أن تواجه حضارات الغرب بمنطقه وفلسفاته وتجاربه بنفس سلاح العقل والمنطق ·

كـان ذلك كله واجبـا على الدعـوة أن تنهض به وقـد فعلت • فلونت فى أساليبها ، وعددت فى وسائل اقناعها ، وسلكت كل سبيل الى النفس والعقل حتى أوفت بهـذا الواجب ونهضت بما تفرضـه عليها عالميتها ، وقطعت السبيل على كل متردد •

وكانت البلاغة أيضا هى وسيلتها فى تحقيق كل ذلك ، فقد توجه القرآن الكريم الى كل فريق من هؤلاء وعالج كل واحدة من هـذه القضايا بما يطابق حاله فجاء آية الآيات فى بلاغته وقمة القمم فى بيانه •

● **الدعوة القرآنية تلبى كل حاجات البشر المادية والروحية :**

يقول الامام الأكبر فضيلة الشيخ شلتوت : « تلقى محمد عن ربه الأصل الجامع للاسلام فى عقائده وتشريعه ، وكان القرآن عند الله وعند المسلمين المصدر الأول فى تعريف التعاليم الاسلامية للاسلام • ومن القرآن عرف أن الاسلام له شعبتان أساسيتان ، لا توجـد حقيقتـه ، ولا يتحقق معناه ، الا اذا أخذت الشـعبتان حظهما من التحقق والوجـود فى عقل الانسان وقلبه وحياته » • وهاتان الشعبتان هما : العقيدة والشريعة •

والعقيدة هى : « الجانب النظرى الذى يطلب الايمان به أولا وقبـل كل شىء ايمانا لا يرقى اليه شك ، ولا تؤثر فيه شبهة » •

والشريعة هى : « النظم التى شرعهـا الله أو شرع أصـولها ، ليـأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه وعلاقتـه بأخيـه المسـلم وعلاقته بأخيـه الانسان وعلاقته بالكون وعلاقته بالحيـــاة »(١) •

هـذا هو ما يدعو اليه الاسلام • عقيدة ترضى فى نفس الانسـان تطلعه الفطرى ونزوعه الى معرفة يقينية للاجابة على الأسئلة التى تؤرقه ، ولا يهـدأ له بال حتى يصل اليها •

« ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدآ ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ • ما القـانون الذى يجب أن يقود عقولنا فى أثناء عبورنا فى هـذه الدنيا ؟ أى مستقبل

---

(١) بتصرف عن « الاسلام عقيدة وشريعة » فضيلة الشيخ محمود شلتوت ص ٤ ـ ٥

ينتظرنا بعد هـذه الحياة ؟ هل يوجد شيء بعد هـذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتها بهـذا الوجـود ؟ » .

« هذه الأسئلة لا توجـد أمة ولا شـعب ولا مجتمـع الا وضـع لهـا حلولا ، جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة » (١) .

هـذه العقيدة ، يقدمها الاسلام حلولا لكل هـذه الأسئلة فى جانبها النظرى ثم هو لا يقدمها فى صـورة تقريرية مجردة ، بل يسوقها مشـفوعة بأدلتها ، مصحوبة بما يحمل النفس على قبولها والاطمئنان اليها ، ويظل يلح على النفس البشرية مخاطبا كل قواها ، نافذا من جميع مداخلها ، حتى تتحول الى ايمان راسخ يمنح النفس هدوءها وتوازنها ، ويباشر دوره فى قيـادتها الى السـلوك فى حيـاتها فى اطـار هذا الايمـان وهـذه العقيـدة .

ثم يأتى بعد ذلك الجانب العملى ـ وهو الشريعة ـ ليرسم الحـدود ، ويقيم المعالم ، وينظم كل علاقات الانسـان :

أولا : بربه ، فيشرع له العبادات التى تصله به وتجعله يعيش حياته مستشعرا رقابته عليه وعون الله ورحمته به .

ثانيا : بأخيه المسلم ، فيضـع النظم الاجتمـاعية التى تبنى عليها الأسرة وتحدد فيها الحقوق والواجبات بين أفرادها : ابنا كان أو أبـا أو اما أو زوجة ، فى الحياة وبعد الموت ، ويضع التشريعات الاجتماعية التى تجعل الفرد عضـوا فى أسرة كبيرة ولبنـة فى بنـاء شـامخ ، يقوم بدوره حسب موقعـه فيـه ، حاكما كان أو محـكوما . ولكل ذلك قوانينه وأحكامه الاقتصادية والسياسية والتربوية والخلقية .

ثالثا : بأخية غير المسلم ، سواء فى ذلك على المسـتوى الفردى أم الجماعى . فينظم علاقة الفرد بمن يخالفه فى الدين ويضـع لذلك الحـدود والقواعد ، وينظم علاقة الـدولة المسـلمة بغـيرها ، سـلما ، وحـربا ، واقتصادا ، وسـياسة .

رابعا : علاقته بالكون . فيبيح له حرية البحث والنظر فى الكائنـات واستخدام آثارها فيما يعود بالنفع عليه وعلى الانسانية كلها ، موجها

---

(١) عن كتاب « الدين » . دكتور عبد الله دراز ص ٨٣

نظره الى أن هذا الكون انمـا خلق من أجـله ، وعليـه أن يكتشف قوانينه وأسراره وينتفع بها فى حياته ٠

خامسا : بالحياة ٠ فيرسم له الطريق السوى الذى لا تفريط فيه ولا افراط ، ويبيح له التمتع بطيباتها ، وينهاه عن خبائثها ، ويضع لكل ذلك ما يضع الانسان على جادة الحق والصواب ٠ والاسلام وهو يضم كل هـذه الجوانب التى تأخذ بيد الانسان فى دنياه ، هادية مسددة خطاه فى دروب العقيدة والعبادة والسلوك ، حتى تسلمه الى الآخرة راضـيا مرضيا ، أو مذموما مخذولا ، حسب استجابته وسلوكه ٠ نقـول ان الاسلام في جمعه بين هـذه الجوانب انما هو فريد بين الديانات ، لأنها ـ كما سبق أن أوضحنا ـ ديانات مرحلية تعقبها أخرى تواجه نقصها ، وتجدد باليها ٠ أما الاسلام فهو الدين الكامل العالمى ، ومن هنا كان على هـذا النحو من الكمال والشـمول ٠

هـذا الشمول فى الدعوة الاسلامية لكل حاجات الانسان استوجب تعددا فى الأساليب لتبليغ كل ذلك للناس ، وعرضه عليهم ، واقناعهم به ٠ فالدعوة الى عقيدة ما تحتاج الى أسـلوب مختلف عن الدعـوة الى نظـام اقتصادى أو ترغيب فى البـذل والعطاء أو دعوة الى الجهاد وبذل النفس ، لكل من ذلك أسـاليبه التى تلامس مـن النفس الانسـانية مواطن التـأثير والاستجابة ومن العقل نطاق القبول والاطمئنان ٠

وقد نجح القرآن الكريم فى دعوته لكل هـذه الجوانب ووصل مع النفس الانسانية فى كل ما دعاها اليه الى حـد الاستسلام له ، والانقياد لندائه والاخبات لصـوته ٠

ولم يترك القرآن للدعاة من بعـده الا أن يتتـلمذوا على بلاغته ، ويتربوا فى مدرسـة بيانه ، ومن هنـا كانت أهمية ما نحن بصـدده من دراسـة ٠

● **الدعـوة القرآنية خاتمة الدعـوات :**

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسـول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » (١) ٠

« أنا العاقب فلا نبى بعـدى » ٠

---

(١) الاحزاب : ٤٠

هكـذا يخبرنا القرآن الكريم ويبلغنا الأمين صلوات الله وسـلامه عليه وتمضى اربعة عشر قرنا منذ أن اعلن القرآن هـذه الحقيقة ، فاذا الواقع يؤيدها ولا يسجل التاريخ ما يشكك فيها · وأية حـاجة للبشرية فى دين جديد من بعـد أن وفى الاسلام بحاجتها ومنحها ما يلبى كل مطالبها ؟

واذا كان هناك من تطـاول وادعى ، فقد جعلته دعـواه سـخرية الساخرين وحديث المتفكهين ، ولم يستطع أحدهم أن يترك اثرا واحدا يـدل على حاجة البشرية الى سخافاته وحمقـه ·

وهـذه الخاصة من خصائص الدعوة الاسـلامية قد اضـافت الى أعبائها عبئا جديدا باهظا ، كان عليها أن تتحمله لتكون صالحة لكل زمـان ومكان ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ·

واذا كانت عالميتها قـد فرضت عليهـا أن تواجه كل ما تحدثنا عنـه من تجمعات بشرية وأفكار وفلسفات وأديان ، فان خاتميتها تفرض عليها أن تواجه بجانب ذلك كل ما يستجد فى حياة البشر من تطورات اجتمـاعية وسياسية واقتصادية وفلسفية ، وذلك لتثبيت أمرين لا مفر منهما :

أولهما : أنها قادرة على استيعاب ذلك كله والاستجابة له ·

ثانيهما : أن ما عنـدها هو الحق ، وما عند غيرها مما يخالفها هـو الباطل الذى لا ريب فى بطلانه ·

ولقد سلكت الدعوة الاسـلامية فى هـذا الجـانب سـلوكا عجبا لا يسـتطيعه الا رب النـاس الذى يتسـاوى فى علمه ما كان وما يـكون ، سبحانه جل علاه · وعند دراسـتنا للنصـوص القرآنية فى الأغراض المختلفة سنرى كيف عبر عن الدعوة وقضاياها وكيف صيغت افكارها فى أساليب بليغة جعلتها صالحة لانسان القرن العشرين ولمن بعـده ، كمـا كانت صالحة لمن تنزلت عليهم فى شعاب مكة ، وصحارى الجزيرة العربية القـــاحلة ·

* * *